رأي | بقلم الرائد الإداري
جورج مفرّج

الديبلوماسيّة: من الإرث التاريخي نحو عصر الذكاء الإصطناعي

تعنى الديبلوماسية بإدارة العلاقات بين الدول، ويكمن جوهرها في التمثيل والتواصل والتفاوض. من المبعوثين الاوائل الذين حملوا رسائل ملكية مختومة على الواح طينية الى ديبلوماسيي القرن الحادي والعشرين الذين يغردون على منصات التواصل في الوقت الفعلي، ظلت الاساليب والادوات والهياكل المؤسسية المحيطة بالديبلوماسية في حالة تغير مستمر، وتشكلت بفعل التغير التكنولوجي والتنافس الايديولوجي وتوازن القوى المتغير في السياسة العالمية.

يتتبع هذا المقال المسار التاريخي للديبلوماسية منذ ظهورها في الحضارات القديمة، وصولا الى الاشكال الناشئة لما يعرف اليوم بـ"الديبلوماسية الخوارزمية" في عصر الذكاء الاصطناعي، ويهدف الى اظهار ان الديبلوماسية ليست مجموعة اجراءات ثابتة، بل هي مؤسسة دينامية تتكيف مع البيئة السياسية والاجتماعية والتكنولوجية لكل عصر.

كما غيّر اختراع الكتابة والطباعة والاتصالات الممارسة الديبلوماسية، فان الذكاء الاصطناعي على اهبة الاستعداد لإعادة تعريف طرق انخراط الدول والجهات الفاعلة الاخرى في التفاوض والتأثير.

أولا، تطور الممارسة الديبلوماسية عبر التاريخ:

يرجع اصل كلمة ديبلوماسية الى اليونانية القديمة، من لفظ Diploma الذي كان يشير الى الوثيقة المطوية او المرسوم الرسمي الممهور بختم يمنح حامله امتيازات خاصة. انتقل المصطلح الى اللاتينية ومنها الى اللغات الاوروبية ليعبر تدريجا عن فن التفاوض وادارة العلاقات بين الكيانات السياسية.

في العصور القديمة، كانت الديبلوماسية بدائية الطابع، اذ ارتبطت بالرسل والمبعوثين الذين يرسلهم الملوك لعقد معاهدات سلام او لتبادل الاسرى او لترتيب زيجات سياسية. في الحضارة المصرية والرافدية، وجدت وثائق مثل معاهدة قادش 1259 ق.م. بين المصريين والحثيين، التي تعتبر من أقدم المعاهدات المكتوبة في التاريخ. اما في اليونان القديمة وروما، فقد ارتبطت الديبلوماسية بمفهوم المدينة - الدولة واعتمدت على السفراء الموقتين الذين يكلفون مهمات محدودة.

في العصر الحديث، شهدت الديبلوماسية تطورا جذريا في القرن السابع عشر بعد معاهدة وستفاليا لعام 1648 التي ارست مبادئ لا تزال تشكل ركائز اساسية للقانون الدولي والديبلوماسية: سيادة الدول، حرمة الحدود، ومبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية. لأول مرة، لم تصغ العلاقات الدولية في المقام الاول من منظور السلطة الاسرية او الدينية او الامبراطورية، بل كنظام كيانات ذات سيادة متساوية قانونيا. منذ ذلك الحين، اصبحت الديبلوماسية مرتبطة بتنظيم العلاقات بين الدول ذات السيادة، مع اعتماد السفراء المقيمين ومأسسة وزارات الخارجية.

بين القرن السابع عشر والتاسع عشر، تبلورت الديبلوماسية الاوروبية ضمن إطار توازن القوى، حيث شكلت التحالفات المتغيرة بين الدول وسيلة رئيسية لمنع اي قوة من فرض هيمنة مطلقة. جسدت معاهدات مثل أوتريخت لعام 1713 ومؤتمر فيينا لعام 1815، هذا المنطق عبر تنظيم العلاقات وفق معادلة دقيقة من الردع والتوافق. مثل مؤتمر فيينا نقطة تحول محورية، اذ اسس لآليات جديدة مثل الديبلوماسية المتعددة الاطراف، والوفاق الاوروبي القائم على التشاور المنتظم بين القوى العظمى، مع تركيز على الشرعية والاستقرار. في هذه الحقبة ايضا، ساهمت التحولات التكنولوجية - كالمطبعة والتلغراف - في تسريع التواصل وادخال الرأي العام تدريجيا في معادلة السياسة الخارجية، بينما دفعت القومية والثورات نحو اعادة تعريف شرعية الانظمة ومبادئ تقرير المصير. في حلول اواخر القرن التاسع عشر، غدت الديبلوماسية أكثر مأسسة واحترافية، تقودها وزارات خارجية متخصصة وتستند الى مؤتمرات دورية، مما مهد لظهور المنظمات الدولية ومفاهيم الديبلوماسية الحديثة التي اختبرت لاحقا خلال القرن العشرين.

في القرنين التاسع عشر والعشرين، تبلورت قواعد الديبلوماسية الكلاسيكية: السرية في التفاوض، التمثيل الرسمي والتركيز على المصالح القومية. لكن مع الحروب العالمية، ظهرت الحاجة الى اشكال جديدة من الديبلوماسية أكثر انفتاحا، قادرة على مخاطبة الرأي العام والتعامل مع قضايا عالمية كالسلام والامن والتنمية. هنا، بدأت الديبلوماسية العامة تأخذ مكانها الى جانب الديبلوماسية التقليدية، لتمهد الطريق لاحقا لما يعرف اليوم بديبلوماسية الذكاء الاصطناعي.

ثانيا، الديبلوماسية العامة: من القصور الى كسب الرأي العام:

الديبلوماسية العامة تعني استخدام ادوات التواصل والتأثير الموجهة الى الرأي العام الاجنبي، وليس فقط الى الحكومات. هي تقوم على بناء صورة ايجابية للدولة وتعزيز قوتها الناعمة من خلال الثقافة، الاعلام، التعليم والتبادل الاكاديمي. هذا التحول جاء نتيجة إدراك ان قرارات الدول لم تعد تبنى حصرا في الغرف المغلقة، بل تتأثر ايضا بمواقف الشعوب، بالصحافة وبمنظمات المجتمع المدني.

برزت الديبلوماسية العامة بوضوح خلال الحرب الباردة، حيث استخدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وسائل الاعلام الدولية (مثل اذاعة صوت اميركا ووكالة تاس) لتشكيل الرأي العام العالمي. كما لعبت البرامج الثقافية والتعليمية دورا بارزا، مثل منح فولبرايت الدراسية او المراكز الثقافية التي اسستها فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة.

مع العولمة وثورة الاتصالات، تضاعفت اهمية الديبلوماسية العامة. اصبحت منصات التواصل الاجتماعي اداة مركزية لوزارات الخارجية، حيث يمكن للسفراء والديبلوماسيين التفاعل مباشرة مع الشعوب. كما دخلت الشركات متعددة الجنسيات والمنظمات غير الحكومية وحتى الافراد على الخط، لتصبح جزءا من شبكة التأثير الديبلوماسي.

اذن، الديبلوماسية العامة اليوم لم تعد حكرا على الدولة، بل اصبحت ساحة تنافس متعددة الفاعلين، حيث يعاد تعريف القوة الناعمة ضمن سياقات اقتصادية وثقافية وتكنولوجية.

ثالثا، الذكاء الاصطناعي: فاعل ناشئ في العلاقات الدولية:

مع بروز الذكاء الاصطناعي كقوة ثورية في الاقتصاد والسياسة والمجتمع، بدأت ملامح نوع جديد من الديبلوماسية في التشكل: ديبلوماسية الذكاء الاصطناعي. تشمل كل الجهود الديبلوماسية التي تتعلق بتنظيم، توظيف ومأسسة تقنيات الذكاء الاصطناعي ضمن النظام الدولي.

أ- الذكاء الاصطناعي اداة للديبلوماسية:

يشكل الذكاء الاصطناعي اضافة نوعية الى العمل الديبلوماسي بفضل قدرته على توظيف البيانات والتكنولوجيا لتعزيز فعالية القرارات والاتصالات. تتجلى أبرز مظاهر هذه القوة في مجموعة من المجالات المحورية التي يمكن تلخيصها في النقاط الاتية:

• جمع ومعالجة البيانات: تستطيع قدرات الذكاء الاصطناعي تحليل كم هائل من البيانات بسرعة غير مسبوقة، مما يتيح فهما اعمق للتطورات العالمية ورصد المخاطر المحتملة.

• التنبؤ بالاحداث: تساعد خوارزميات التعلم الآلي في توقع الازمات السياسية من خلال تحليل الخطاب الاعلامي والتفاعلات على شبكات التواصل الاجتماعي.

• تعزيز الديبلوماسية العامة: يساهم تحليل توجهات الرأي العام في تصميم حملات تواصل موجهة بدقة ويتيح الاستجابة السريعة للازمات.

• تحسين التفاوض وادارة الازمات: يوفر الذكاء الاصطناعي ادوات لمحاكاة السيناريوهات المختلفة وتقدير نتائج السياسات البديلة مع تقديم توصيات موضوعية.

• تسهيل التواصل بين الثقافات: يعزز استخدام تقنيات الترجمة الالية ومعالجة اللغات الطبيعية من قدرة الديبلوماسيين على تجاوز الحواجز اللغوية والثقافية.

ب- تحديات استخدام الذكاء الاصطناعي في الديبلوماسية:

ان دمج الذكاء الاصطناعي في الممارسات الديبلوماسية يفتح افاقا جديدة لديبلوماسية أكثر استباقية وفاعلية، ويعيد تشكيل موازين القوة الناعمة والصلبة في النظام الدولي المعاصر. غير ان هذا التوظيف لا يخلو من التحديات، ابرزها:

• المخاطر الاخلاقية والخصوصية: يؤدي جمع وتحليل البيانات الحساسة الى انتهاكات لخصوصية الافراد وسيادة الدول، خاصة إذا كان الهدف استغلالها سياسيا.

• الانحياز الخوارزمي: يمكن ان تعكس التحيزات المدمجة في البيانات او لدى مطوريها قرارات ديبلوماسية او توصيات غير عادلة، تؤثر على صدقية الدولة او علاقتها بشركائها.

• التضليل المعلوماتي: يمكن توظيف الذكاء الاصطناعي في انتاج محتوى زائف (مثل Deep Fake) للتأثير على الرأي العام أو خلق ازمات ديبلوماسية.

• التجسس والاختراق: ان قدرة الذكاء الاصطناعي على تحليل كميات ضخمة من البيانات تجعل منه اداة فعالة للتجسس الالكتروني، مما يهدد امن المعلومات الديبلوماسية ويعرض المفاوضات او الاتصالات السرية للخطر.

رابعا، تحديات وآفاق مستقبلية للديبلوماسية في العصر الرقمي:

تواجه ديبلوماسية الذكاء الاصطناعي تحديات معقدة، اهمها:

• التنافس الحاد بين القوى الكبرى الذي يهدد باندلاع "سباق عالمي لامتلاك تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي" شبيه بالسباق نحو التسلح، نظرا الى الامكانات الهائلة لهذه التقنية.

• غياب التوافق الاخلاقي حول حدود استخدام الذكاء الاصطناعي.

• تضخم دور الشركات الخاصة التي تملك نفوذا قد يتجاوز نفوذ بعض الدول.

لكن في المقابل، تحمل امكانات هائلة:

• بناء اطر تعاون عالمي لمواجهة تحديات مشتركة مثل التغير المناخي او الاوبئة.

• اتاحة الفرصة للدول الصغيرة والنامية لتطوير موقعها من خلال الذكاء الاصطناعي.

• اعادة تشكيل الديبلوماسية الدولية بحيث تصبح اكثر شمولا وتفاعلا مع العلوم والتكنولوجيا.

منذ نشأتها كفن للتفاوض بين الملوك والامبراطوريات، قطعت الديبلوماسية شوطا طويلا حتى وصلت الى عصرها الحالي الذي يتسم بالتشابك بين السياسة والتكنولوجيا. فإذا كانت الديبلوماسية العامة قد فتحت المجال امام الشعوب والاعلام لتصبح جزءا من لعبة العلاقات الدولية، فإن ديبلوماسية الذكاء الاصطناعي تمثل اليوم نقطة التحول الكبرى، حيث تتقاطع مصالح الدول والشركات والمجتمعات في صياغة مستقبل مشترك. انها ليست مجرد مرحلة جديدة من الديبلوماسية، بل اعادة تعريف شاملة لآليات القوة والتأثير في القرن الحادي والعشرين.